إحياء الوسط التاريخي لمدينة بيرزيت:

رحلة تحدي الواقع والممكن واللامتخيل وتجربة رائدة في الحفاظ والتأهيل

وليد أحمد السيد

■ يمثل الحصول على جائزة، محطة مهمة في مسيرة رحلة شاقة، تتخللها الكثير من المطبات، والإرهاصات، لتحقيق حلم ما على أرض الواقع، وعلى فترة ليست باليسيرة في الكثير من الأحيان. والجائزة، كائنا ما تكون قيمتها المادية، لها بعد رمزي، لا يمكن أن تعبر عنه لحظة الإعلان عنها أو أن تختزل مسيرة سنوات طويلة في ثواني معدودة. كل ذلك يمكن فهمه، حين تكون الجائزة لعمل انتهى أو شارف على الإنتهاء، ولكن حين تمنح الجائزة لعمل فكري أو إبداعي أو تقني ما، لا يزال جاريا مستمرا، بما يشي بالحجم الهائل للجهود المبذولة والتضحيات التي راحت دون المعلوم والمسجل، فإن الجائزة تقترب من الرمزية – رغم أهميتها وحاجة القائمين على العمل لها كي يدرك العالم أهمية ما يقوم به نفر من الحالمين بفكرة ما، المبدعين، والمؤمنين بأهمية وقيمة العمل وتخطيه حواجز الإبداع «الزمني» إلى ما بعد اللحظة، والجغرافيا، والحدود الخانقة الضاغطة التي تعمل على حشر العمل الإبداعي في نطاق ضيق، تتداعى عليه الإرهاصات، الإقتصادية، والتقنية، والسياسية – في حالة مدينة تحت الإحتلال. كل ذلك غالبا ما جرى، تاريخيا، وعلى الدوام في خضم حالة من الإنكار المجتمعي والوسط المتشكك المرتاب المحيط لأهمية ونجاعة المشروع في بداية خطواته الأولى وانطلاقته من مرحلة الحلم إلى مشارف الواقع العملي المشبع بالحواجز، والموانع، والشكوك، والضوائق، والصعاب، وما لا يحصى من الأسباب الموجبة للإستماع «لصوت العقل» و«ضرورة» تولية الوجه شطر ناحية أكثر ربحا، وأقصر دربا، وأقرب رحما.

قصة إحياء الوسط التاريخي لمدينة بيرزيت الفلسطينية، تحكي أبعد من هذا كله. فتوصيف الجهود التي راحت طيلة أكثر من ثلاث عقود من التعب المضني، والسهر الكادح، والعمل الدؤوب، سيكون من غير الإنصاف حشرها في سطور. هي قصة تجسد ما بين الحلم والواقع، ما بين الصمود في وجه عواصف الإحباط والتثبيط، هي قصة تفاعل الفكر مع البيئة المحيطة، رعايتها، حمايتها، وترميمها، وإعادة تأهيلها، وتنشيطها بهدف إعادة الإستخدام، توفير فرص العمل للمجتمع المحلي كي يتفاعل مع المدينة ووسطها التاريخي، في واقع خانق، وحصار اقتصادي ينتج البطالة على الدوام، ويسرع بوتيرة اليأس الطارد للإبداع والمجتمع، تفريغا للأرض من سكانها، وتنفيرا من كل ما هو أصيل وجميل وخاص بالبيئة الإجتماعية لأصحاب الحق والإرث التاريخي والموروث الثقافي والعمراني الذي يمتد عبر القرون والأجيال.

بيرزيت: التاريخ والجغرافيا

بيرزيت المدينة الفلسطينية التي تقع في وسط الضفة الغربية على بعد حوالي 11 كيلومترا شمال مدينة رام الله وتبعد أيضا حوالي 25 كيلومترا عن القدس المحتلة، تتميز بمركز تاريخي يمتد على رقعة جغرافية تبلغ أربعة هكتار، كما ترتفع المدينة حوالي 780 مترا عن سطح البحر، وتحيطها التلال الزراعية، وخاصة حقول الزيتون. ويشير اسم المدينة إلى علاقتها بزراعة الزيتون وعصره حيث يتكون من مقطعين (بير – زيت) إشارة إلى خزانات التخرين الأرضية لزيت الزيتون التاريخية والتي ما يزال بعضها موجودا حتى اليوم. كما تعود المدينة للعصور البيزنطية وسكنت على الدوام منذئذ.

ولم تكن تداعيات السياسة يوما بعيدة عن وقعها المتسارع على الأرض والناس. فقد كان لاتفاقية أوسلو عام 1993 بعد عميق على الجغرافيا الفلسطينية، وعلى المجتمع والإقتصاد الفلسطيني على حد سواء، فضلا عن النسيج العمراني، حيث قلصت بشكل هائل الرقعة الجغرافية تحت السيطرة الفلسطينية، كما قسمت الأرض في الضفة الغربية إلى مناطق أ (حضرية تحت السلطة الفلسطينية المدنية والعسكرية)، ومناطق ب (معظم القرى والمدن الفلسطينية، ومنها مدينة بيرزيت، تحت السلطة المدنية الفلسطينية)، ومناطق ج والتي تمثل الأراضي الفارغة غير المستغلة.

وقد شهدت مدينة بيرزيت كغيرها من المدن الفلسطينية الأخرى العديد من التحولات الدراماتيكية من بداية حتى منتصف القرن العشرين والتي صبغت معالم البيئة المبنية والجغرافيا والديموغرافيا السكانية وأدت إلى العديد من الهجرات القسرية لأصحاب الأرض الفلسطينيين إلى دول الجوار وما يعرف ببلاد الشام. وهذه التحولات كانت كعملية متسارعة الوتيرة قادتها أحداث عالمية وإقليمية عميقة الأثر منها، الحربين العالميتين، وإنشاء دولة الكيان الصهيوني عام 1948، والإحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية ونهر الأردن وشرق القدس عام 1967. في خضم هذه التداعيات السياسية فقد تركت البيوت التقليدية في وسط بيرزيت التاريخي للتداعي والتهدم حيث تركها أصحابها الذين هاجروا لبلاد الشام الكبرى، أو من بقي منهم في الإقليم فقد بنوا بيوتا جديدة خارج الوسط التاريخي في المناطق الأقل ازدحاما، استجابة للحياة العصرية وحيث تتوفر وسائل الحياة خارج المدينة القديمة. وفضلا عن ذلك فقد كان للإحتلال الإسرائيلي دور سلبي عميق في كبح جماح أية بادرة للتطور الإقتصادي، مما حدا بالحركة التجارية والإقتصادية إلى الإنتقال بعيدا عن المدينة ووسطها وبيئتها التاريخية، مما تركها مهجورة اقتصاديا وسكانيا بدرجة كبيرة. وقد تفاقم الوضع في بداية الثمانينيات حين انتقل موقع جامعة بيرزيت الحيوية لموقع جديد على بعد عدة كيلومترات إلى الجنوب، قاضيا ذلك على ما تبقى من الحياة في المدينة التاريخية ووسطها التقليدي رغم استمرار معالم الحياة الدينية في المساجد والكنائس.

رواق

في هذه الظروف الإستثنائية، وتحت حصار إقتصادي واحتلال خانق، نشأت فكرة مركز رواق الذي تأسس عام 1991 للعمل على عكس التداعي والهدم والهجرة القسرية الطاردة من المدينة ومركزها التاريخية بهدف إعادة الإحياء والتنشيط والإستخدام. وكان من أولويات أهداف المركز حماية التراث الثقافي الفلسطيني، بما فيه البيئة العمرانية المبنية. واتبع المركز استراتيجية متعددة المراحل والوسائل منها التوثيق، والحفاظ، والتنشيط والإحياء، فضلا عن المشاركة المجتمعية المهمة والضرورية لنجاح العملية برمتها، من أجل عكس تيار الطرد المركزي الإجتماعي والإقتصادي الذي ترك بصماته المدمرة على البيئة المبنية. كما اجترح المركز وسائل منها تعديل التشريعات والقوانين والضغط على صناعة القرار البيروقراطية، والإعلان والعمل العام، والتدريب ورفع الوعي الشعبي والعمل على إيجاد برامج لهذه الغايات.

أما حجر الزاوية لعمل مركز رواق فكان برنامج «الخمسين قرية» الذي تم إطلاقه منذ العام 2007، وهو خطة طموحة لحماية مجموعة منتقاة من القرى حيث تقع حوالي 50 % من المباني التاريخية التي يمكن الحفاظ عليها والتي نجت من عمليات الهدم والتداعي. وكانت هذه بمثابة رؤية للمركز لعملية لم شمل البيئة المبنية المحيطة على المستوى التخطيطي، وليس الحفاظي التاريخي فقط، كردة فعل عمرانية تخطيطية لما بعد مرحلة أوسلو، حيث كانت الأغلبية الغالبة من الفلسطينيين تعيش في منطقة ب تحت ظروف اقتصادية غاية في الصعوبة. وقد أدرك مركز رواق أن التركيز على القرى يمكن أن يحافظ على الكثير من التراث الفلسطيني، وفي نفس الوقت يحقق أثرا هائلا من النواحي الإقتصادية والإجتماعية. فعملية الحفاظ ستعمل على خلق وظائف جديدة، كما أنها ستنشط المشاغل الحرفية المحلية، وبالنتيجة ستطلق شرارة الإهتمام بالإستثمار في قلب القرى التاريخية. وقد كان الوسط التاريخي لمدينة بيرزيت هو المحطة الأولى والأهم لبرنامج الخمسين قرية الذي ما زال العمل فيه مستمرا حتى بعد الحصول على هذه الجائزة المهمة التي تضع العمل الدؤوب الذي بدأه مركز رواق في موقعه الملائم على خريطة التقدير العالمي الذي يستحقه.

من الإستراتيجيات المهمة التي اتبعها المركز في تحقيق عمله في الحفاظ التاريخي كان التركيز على المشاركة المجتمعية المحلية والتي كان لها أبعادا مهمة وكبيرة في نجاح المشروع على عدة مستويات اقتصادية واجتماعية، فضلا عن البعد السياسي غير المباشر في ربط المجتمع المحلي بأرضه. وارتبط عمل البلدية مع المركز مع أصحاب المصلحة والشأن المحليين ارتباطا عضويا وثيقا من أجل العمل على بلورة مخطط وبرنامج التنشيط، وتحديد المشاريع على المستوى الدقيق والمحدد، وهي جميعا دروس يمكن الإستفادة منها لهذه التجربة الرائدة في عمليات التوثيق والمسح والحفاظ على المستويات النظرية والعملية على حد سواء.

عند بدء العمل عام 2008 لم يزد تعداد المجتمع المحلي للمدينة القديمة عن 183 فردا فقط، يمثلون 36 عائلة، ومن هؤلاء كانت 16 عائلة فقط تملك المبنى الذي تسكن فيه، بينما تستأجر العشرين عائلة الأخرى.

ولم يكن من مصالح تجارية هناك سوى ثلاثة: محل للميكانيك، ومتجر للبقالة، ومخبز. وكبقية قرى الضفة الغربية كانت المباني في الوسط التاريخي تتكون من طابق واحد من الحجر الكلسي المحلي المثبت بالملاط الكلسي، أما البيوت فكانت على نمط أو نمطين من شكل مربع، مغطاة بقبة، تستعمل بشكل جماعي من قبل العائلة الممتدة التي تقطنه، حيث تتم إضافة مطبخ وحمام من الخرسانة لاحقا مع توسع العائلة في الجزء الخلفي من البيت.

وقد اتبع مركز رواق استراتيجية حفاظ وقائي للإرتقاء بالمجال العام وترميم مباني عامة منتقاة للمجتمع المحلي إلى مستوى عالمي مقبول، وذلك جنبا إلى جنب مع التأهيل الخلاق الإبداعي لاحتواء المتطلبات المعاصرة حيثما يكون القديم غير ملائم أو في حالة غير قابلة للترميم أو مفقود، وفي ذات الوقت المحافظة على التكوين المعماري العام خلال العملية. كما أن استراتيجية خلق الوظائف على الدوام للمجتمع المحلي كانت رائدة بكل المقاييس، وأهمها الحفاظ على العديد من الحرف التقليدية التي انتقلت تاريخيا من جيل لآخر وكانت في طريقها للإندثار والزوال قبل هذا البرنامج المتميز. وجاء الحفاظ على الوسائل والتقنيات التقليدية في البناء بمكان مهم كناتج أساسي لهذه العمليات المتعاقبة لبرنامج الحفاظ ورافدا مهما للحفاظ كعملية مستمرة، بالإضافة إلى تفعيل استخدام المواد المحلية، بما أدى إلى رفد وإحياء الإحياء الإقتصادي.

وبعد خمس سنوات من العمل الشاق المضني بدأت ثمار المشروع تؤتي أكلها، فقد تم ترميم أرصفة الطرقات، وتسميتها والدلالة عليها بلافتات واضحة، والإرتقاء بالبنية التحتية لتوفير المياه وزرع الأنابيب لعمليات مستقبلية للصرف الصحي، والحفاظ على واجهات المباني، وخلق فضاءات حضرية عامة مثل الملاعب وأعيد تأهيلها مثل الأفنية والحدائق، كما تم ترميم عدد كبير من المباني التاريخية لاستخدامها في مختلف الوظائف المجتمعية وللمؤسسات الثقافية وكسكن جامعي وسكن سياحي والتجارة الخاصة. وبهذا فقد تم خلق محور ثقافي حيوي يعيد الحياة للمركز التاريخي مرة أخرى.

شهادة لجنة التحكيم: «مشروع إعادة إحياء المركز التاريخي لبيرزيت، هو مشروع ديناميكي، نجحت من خلاله منظمة (رواق) غير الحكومية في حشد طاقات كافة الجهات المعنية والعمال الحرفيين المحليين والاستفادة منهم في عملية، لا تقتصر على الجانب المادي في أعمال الترميم فحسب، بل تشمل جوانب أخرى اجتماعية واقتصادية وسياسية».

«من خلال عكس عملية الإهمال والمحو التي استمرت لفترة طويلة ضمن سياق سياسي معقد وصعب، استطاع المشروع تحويل ليس فقط النواة التاريخية المهملة للمدينة فحسب، بل تحقيق التغيير في حياة الناس أيضا. ومن ناحية أخرى، لم يسترجع المشروع المباني المهدمة فحسب، بل عمل على استرجاع كرامة مستخدميها أيضا».

«يقدم المشروع بديلا للنوى التاريخية، كما يقود عملية تحويل المركز التاريخي لبيرزيت إلى بنية تحتية ثقافية. ويسهل المشروع عملية ترميم التراث من قبل الأشخاص المعنيين، في الوقت الذي يسمح لهم أيضا في تحقيق تطلعاتهم الذاتية. ويمثل المشروع تجربة مثالية في عملية الحفاظ على التراث الريفي، ونموذجا رائعا يمكن تكراره في القرى الخمسين الأخرى التي تعمل فيها (رواق)، وبشكل خاص التدخلات الإستراتيجية المصممة لتحفيز عملية التنمية على المدى الطويل».

تجربة رائدة ملهمة

هذه التجربة الرائدة، رغم كل التحديات التي يمثلها الواقع المحيط والمحبط، والذي كان بعيدا عن التصور في إطار الممكن تحقيقه، فضلا عن بعده حتى عن التصور في إطار نظري لامتخيل، تمثل نموذجا محفزا للكثير من التجارب المتميزة التي تدور رحاها في العديد من الأقطار العربية التي باتت تدرك أهمية الحفاظ على الإرث التاريخي والتقليدي. كما يوفر هذا النجاح والفوز بهذه الجائزة الرفيعة المتميزة في فضاء العمارة الإسلامية حافزا للكثير من المؤسسات الخاصة والجهات الحكومية لوضع جهودها في متناول الترشيح للجائزة في دورات قادمة، لتكتسب قيمة رمزية وتوضع جهودها في إطار التقييم والتقدير والإدراك العالمي. وعلى المستوى الشخصي يدرك كاتب هذه السطور أهمية الجهود التي تقوم بها وزارة السياحة ومركز التراث العمراني في المملكة العربية السعودية في توثيق وتسجيل ورفع التراث العمراني إلى الوعي الشعبي. وبالإضافة لذلك هناك الجهود الكبيرة والقيمة التي تقوم بها وزارة التراث والثقافة العمانية منذ وقت في تسجيل وتوثيق الحارات التقليدية في محافظات السلطنة المختلفة، إضافة لجهود بلدية أربيل في إقليم بات ينتعش اقتصاديا واستثماريا ويمم وجهه شطر ترميم وتنشيط السياحة المستدامة في الحفاظ على أقدم المستوطنات البشرية المأهولة بشكل مستمر في قلعة أربيل. وهذه كلها جميعا تعد مشاريع رائدة تستحق الإلتفات إليها في دورات قادمة لهذه الجائزة التي رعت الإبداعات العمرانية في العالم الإسلامي لما يقارب من أربعة عقود وما تزال.

تم نشر معلومات عن هذا المشروع في كتاب (Architecture is Life) الصادر عن جائزة الآغاخان للعمارة وعن دار نشر (Lars Muller Publishers).

بيانات المشروع

صاحب العمل: بلدية بيرزيت، فلسطين: يوسف نصر، رئيس البلدية السابق؛ حسيب الكيلة، رئيس البلدية، موسى الحاج، المدير السابق

المهندسون المعماريون: رواق – مركز المعمار الشعبي، رام الله، فلسطين: خلدون بشارة، فداء توما، مدراء، سعاد العامري مؤسس ومدير سابق، نظمي الجوبه مدير سابق، فرحات محاوي، مدير مشروع بيرزيت، إياد عيسى، شاتا سافي، مخططين معماريين، ربى سالم، غادة مبارك، بلال أبو فزعة، خليل رباح، لانا جودة، سحر قواسمي، ميشيل سلامة، ريناد شقيرات، يوسف طه، مهندسين معماريين؛ طارق دار ناصر، نظام عويدات، مهندسين مدنيين. جمعية الروزنا للتراث المعماري، بيرزيت، فلسطين، رائد سعادة، المدير، وزارة الإدارة المحلية، رام الله، فلسطين، شروق جابر، مهندسة معمارية. بلدية بيرزيت، فلسطين، نور خدايري، رنا شقعة، مهندسون معماريون

مستشارون: جامعة بيرزيت، فلسطين: يزيد عناني، مساعد بروفسور؛ سمير بيضون، رئيس كلية الإدارة والأعمال؛ إنعام عبيدي، عضو في كلية برنامج دراسات الإعلام؛ لونا شامية، مساعد عميد كلية السياسات العامة والإدارة؛ نظمي جوبة، بروفسور. Golzari NG للهندسة المعمارية، لندن، المملكة المتحدة، ناصر غولزاري، مؤسس وعضو؛ يارا شريف، شريك. وزارة العدل، رام الله، فلسطين: وليد بدوي، المدير. شركة حلول التنمية الإستشارية، رام الله، فلسطين: جودة إياد، المدير. جمعية إنعاش الأسرة، البيرة، فلسطين: نجلاء بركات، مساعدة مدير أبحاث المجتمع. مؤسسة دار الطفل العربي، القدس: بهاء جوبة، أمين متحف التراث الفلسطيني. المدارس الصديقة في رام الله، فلسطين: فرحات موحاوي، مسؤول التخطيط والهندسة المعمارية. صندوق الاستثمار الفلسطيني، البيرة، فلسطين: ماهر صالح حمايل، مشرف

التمويل

وكالة التنمية الدولية السويدية، ستوكهولم، السويد. شركة بيرزيت للأدوية، بيرزيت. معهد فلسطين للتراث (Palestine Institut du Patrimoine Wallon) نامور، بلجيكا. المكتب التمثيلي لمملكة هولندا في رام الله، فلسطين

مساحة الموقع: 40.640 متر مربع. الكلفة: 1.45 مليون دولار أمريكي، التفويض: حزيران/ يونيو 2006، التصميم: كانون الثاني/ يناير 2007 – تشرين الثاني/ نوفمبر 2011. البناء: كانون الثاني/ يناير 2008 – كانون الثاني/ يناير 2012. التسليم والتشغيل: كانون الثاني/ يناير 2009 – حتى اليوم.

الموقع الالكتروني لمركز رواق:
http://www.riwaq.org

جانب من مدينة بير زيت

تداعيات

في صحبة الجواهري

عبد السلام ناس عبد الكريم

■ حين تعود بنا ذاكرة الشعر إلى حركة الحداثة الشعرية في الشعر العربي المعاصر قبل حوالي ستة عقود تحضرنا أسماء وازنة تركت الأثر في الوجدان الثقافي العام للمرحلة ولأجيال قادمة ظل يستهويها ذلك النغم الشعري الثوري الملتزم الذي كان يلازم حساسية التلقي لدى مثقفي الفترة، تلك الحساسية التي عكستها أعمال الجيل الأول من نقاد الحداثة من عيار محمود أمين العالم وغالي شكري ومن تلاهم من المخضرمين كيمنى العيد وغيرهم ممن تشبعوا بالنقد الماركسي والاجتماعي ... وتحضرنا عند هؤلاء وقفاتهم وغاراتهم النقدية الدسمة على تجارب رواد مدرسة التجديد الشعري من أمثال السياب والبياتي وعبد المعطي حجازي ودرويش ...ليفرز المزيج نتاجا ثقافيا شكل بالنسبة لتلك الأجيال المجاورة من القراء بيانا حقيقيا بنوا عليه أطروحاتهم النظرية ومواقفهم الفعلية في الأدب والحياة. وإننا حتى لو أغفلنا في هذا الخضم من التلقي الشعري الموصول بحماس الدرس والتكوين ما يمكن أن يغفل من أسام، فلن يكون بوسعنا أن ننسى بعض الأسماء الشعرية الكبرى التيّ شكلت لنا ونحن تلاميذ في الطور الثانوي لغزا محيّرا، وعلى رأسها اسمان رئيسان : الأول ارتبط بعمادة الأدب العربي وبإعادة النظر في بديهيات الشعر الجاهلي وأعني به الدكتور طه حسين الموسوم بدقة النظر المنهجي الذي لم نكن لنستوعب منه آنذاك الشيئ الكثير. أما الثاني فارتبط بمرحلة النهضة الشعرية وصنف في مقررنا الدراسي المغربي آنذاك (في السبعينات من القرن الماضي) ضمن مسمى مرحلة البعث والإحياء. وكنت أحسّ وأنا طالب بالثانوية بنوع من التميز والاختلاف بين شخصية هذا الشاعر وبين الشخصيات الثلاث الأخرى المقررة ضمن المحور شوقي وحافظ والبارودي، المزهوين بطرابيشهم التركية السامقة التي لا شك في أنها تشي بانتمائهم الأرستقراطي. بينما كان الجواهري يقف بعيدا عنهم (ضمن فقرة متأخرة من المحور) بطاقيته النجفية المزركشة التي تشي بالانتماء الشعبي مع ما ينازعه من حسّ التمرد والسخرية والتحرر من الأعراف. ولم يكن في مقدورنا حينذاك أن ندرك خفايا هذا النزوع المختلف وعلاقته بالنسيج الثقافي والخلفية التي ساهمت في ترسيخه وإبرازه، إلا بعد مراحل من الدراسة والتكوين والتمرس الميداني في مجال التدريس لهذه الظواهر. لاسيما وأنها كانت متباعدة عن بيئتنا المغربية الموسومة بهدوء النبض الثقافي والسياسي، إذا ما قارناه بمثيله في مصر والشام والعراق على نحو خاص. وأذكر أن القصيدة المقررة للشاعر الجواهري في ذات المحور كانت تحت عنوان: (دجلة الخير) ومطلعها:

حيّيتُ سفحَكَ عن بُعدٍ فحيِّيني يا دجلةَ الخيرِ يا امَّ البساتينِ
حييّتُ سفحكَ ظمآنا ألُوذُ به لَوذَ الحمائمِ بينَ الماءِ والطينِ
يا دجلةَ الخيرِ يا نبعاً افارقُهُ على الكراهةِ بين الحين والحين
إنِّي وردتُ عيونَ الماءِ صافيةً نَبْعا فنبْعا فما كانت لتَروِيني
وانتَ يا قاربا تلْوي الرياحُ به لَيَّ النسائمِ أطرافَ الافانينِ...

ولم نكن لندرك في تلك الأحوال من التلقي المشروطة بالحذر والنأي عن التأويل ورصد الأبعاد، التي تحيط بهذا المقام الشعري العميق الذي تفجره أداة النداء، والتي تتلخص في سبر المعاناة التي كانت تستبد بشاعرنا المعنّى وخلفه شرائح من شعبه، جرّاء ظروف النفي والإقصاء والحصار والمطاردة التي كان يفرضها النظام المتسلط في العراق آنذاك على المثقفين المستنيرين دعاة الإصلاح والتغيير وعلى رأسهم الشاعر الجواهري، يوم كان الشعر حمّال رسالة وأداة نضال لا هذيانا مفرغا يسري بين السطور ..

وأجدني اللحظة في حاجة إلى أن أدعم ذاكرتي تلك بذاكرة رائقة تشفي الغليل هي للشاعر والكاتب العراقي هادي الحسيني. ففي سياق احتكاكه المبكر بتجربة الشاعر عبر مناهج القراءة المقررة في أزمنة الحصار والرقابة، حيث كانت الحواجز موضوعة بين ألق هذه التجربة الشعرية التي فرضت نفسها بقوة، وبين فهمها واستيعابها في سياقها الثوري . يقول الحسيني: ((أذكر جيداً حين كنت في الصف الثالث المتوسط وفي بداية العام الدراسي كان أول الدروس في المطالعة والنصوص هو قصيدة الجواهري التي يقول في مطلعها : سلام على مثقل بالحديد ويشمخ كالقائد الظافر !

قرأ مدرس المادة ثمانية أبيات من القصيدة وطلب منا نحن الطلاب أن نقرأها في الكتاب ومن ثم علينا حفظها الاسبوع القادم ! وقع اختيار المدرس عليّ بأن أبدأ بقراءة القصيدة داخل الكتاب !

قلت له أني أحفظها يا استاذ ! ادهشه ما قلته !

اوقفني امام زملائي وقرأت القصيدة كاملة ! كان البعثيون في مناهج الدراسة آنذاك كتبوا أهداء القصيدة الى مناضل بعثي ! لم يسموه !

سألني الاستاذ كيف حفظت القصيدة، قلت له لدينا في البيت ديوان الجواهري واقرأ منه الكثير، ثم أكملت حديثي بأن هذه القصيدة كان الجواهري قد كتبها بعد اعدام يوسف سلمان يوسف وهي مهداة له !

سألني المدرس ومن يكون يوسف سلمان يوسف ؟

قلت له أنه (فهد) مؤوسس الحزب الشيوعي العراقي !

اغلق فمي بيده اليمنى ! وقال سوف تحبسنا !!))

تفاحة الخجل

سعد سرحان

■ في طفولتي المبكرة، كان أبي، بين الفينة والأخرى، يصطحبني إلى المقهى، ومثله كانت تفعل أمي كلَّ حمَّام. بين رغوة النساء وخشونة الرجال، بين رائحة النعناع ورائحة الحناء، وبين بخار الماء ودخان السجائر... قضيت أوقاتًا حالمة، قبل أن أطرد من الجنتين.

من جنة أبي طردت بسبب امرأة.

فذات مساء، كنت أقتعد كرسيًا إلى جوار أبي، بينما هو يلعب الورق مع أترابه، إذ وقفت متسولة شابة لا تعدم جمالا. ولأنها لم تكن تحمل ما تستدر به العطف، يتيمًا أو عاهةً، فقد رمت فوق طاولة الورق ورقتها الرابحة: الأنوثة. الغنج والضحك والكلمات الداعرة... كانت أسلوب الشابة في الاستجداء، فبها تستنهض في الرجال همم الرجال، فإذا أيديهم منتصبة نحو كفها تقذف فيه نطف النقود. وحده أبي كان عفيفا. لا، لم يكن عفيفا فقط، بل مستاء أيضا. لقد اكفهرّت ملامحه لاغتصاب براءتي، فنهض غاضبا، وغادرنا، ولم يعد يصطحبني، فكان ذلك بالنسبة إليَّ فطاما آخر.

من جنة أمي طردت بسبب امرأة أخرى.

يقيناً أن الحيزبون البدينة، حارسة الصرر، صرر الملابس، هي التي غمزت لأمي بأني صرت رجلا، ولا يليق بي أن أرى من النساء ما يثير الرجال.

المتسولة الشابة وحارسة الصرر العجوز وجهان لامرأة واحدة. الأولى تحرص على عُري الكلام في حضرة الرجال، والثانية تحرس عريَ النساء بحراسة ملابسهن.

الكلام العاري كالجسد العاري. يضفي الشباب على هذا ما يضفي على ذاك. وكذلك تفعل الشيخوخة إذ تغدق عليهما نفس القدر من التجاعيد.

تلك المتسولة الشابة، التي كانت تعاشر الرجال بالكلام فتتقاضى أجرتها صدقةً، لم تعد شابة. لقد جفت ورقة أنوثتها وأمست الأغصان تيمم حليبها شطر أوراق أكثر نضارة. وإذا كانت لا تزال على قيد الحياة، فلابد أنها تعمل الآن حارسة للصرر في حمام للنساء.

في ذلك المساء البعيد، مساء أبي وشلته، أذكر، كانت المتسولة ترمي شباكها نحوي، تماما كما كانت تفعل مع الآخرين. فقد رأت في الصبي الذي كنته رجلا، ولعلها انتظرت مني غنيمة، أنا الذي لم تكن قد اجتمعت لصلبي غلمة.

حارسة الصرر كانت امرأة مسنة وبدينة. والأرجح أنها كانت قد نسيت طعم الرجل وشكله العاري، لذلك رأت فيَّ رجلًا هي الأخرى.

الشابة البذيئة والعجوز البدينة استعجلتا الرجل فيَّ، فسقطتُ باكرا في أرض النساء مضرجًا بنصفيْ تفاحة من الخجل.

قص

ظَلَمتني الرواياتُ.. والمقاهي ضَحِكَت عليّ

مؤمن سمير *

■ نشأتُ، كالكثيرين غيري، أقرأُ بشَغَف ولا أحسُّ بالاتساع إلا في المقاهي .. وحدث أنهما اجتمعا لتوريطي أو بالأحرى استجابا لرغبةٍ خفية .. أو فَجَّة، لا أعلم لليوم، كانت تتمشى في أرجائي منذ الأَزَل ..

كنتُ ألتقي بالمبدع على المقهى في أي وقتٍ وفي كل الأوقات .. ثم يتحرك من المقهى المتواري للمقهى المزركش ثم للندوة أو المعرض أو حتى للمؤتمر الذي يستغرق أياماً أو الملتقى الذي يستتبع غياباً أكبر.. سنواتٌ وأنا ألحظ حريته في الحركة وانفلاته من واجباته الاجتماعية وأسأل عن السر فيقول زوجتي الطيبة البسيطة، قريبتي من البلد هي السرُّ والسرُّ هي .. وأتعجب وأقول لكنكَ عشتَ تربي عقلَك ووعيك عبر السنوات والمنطقي أن تبحث عن المتوائمة معك فكرياً في المقام الأول .. يضحك ويقول تعني أن يتزوج المثقفُ مثقفةً ؟ يعني تضع ساقاً على ساقٍ في وجهكَ فتجفل عن أن تطلب منها أن تُعِدَّ لك كوبَ شاي ! وتبيتُ معك حتى الصباح في عراء النقاشات البيزنطية، على المقاهي أو في تجمعات المثقفين أو في قلب المظاهرة .. وتشرب معك في البار وتتبارى معها في لون الأسنان الأسود من هول التدخين الذي لا تنقطع سحاباته أبداً أبداً ..؟ أرد عليه بأنه يقدم صورة نمطية بالإضافة لأن تجربة الثنائي الفلاني مثلاً تجربة ناجحة وخلفت أطفالاً أسوياء وأعمالاً أدبية ناضجة .. يقاطعني ويحصيهم بالاسم والتاريخ ثم يغمغم .. استثناءات .. لكن الغالبية أبعد عن ذلك بكثير .. الزوجة القادمة من البلد تصونك وتربي أطفالك وتراكَ (حاجة كبيرة) وبين ثنايا وتلافيف وعيها كل الأفكار الرجعية التي نحاربها طول الوقت، عن قناعة، لكننا، وبما أنها مازالت موجودة، نستفيد منها في الخَفاء ... تُصدم وتختلف وقد يسقط من نظرك جراء ازدواجيته الفَجَّة لكنك وأنت في طريق عودتك تستدعي ما قرأته في رواية تصف أحوال المثقفين .. وتقرر أن تبدأ حرباً شعواء على الكذب والنفاق وعلى المثقفين الذين يقولون مالا يفعلون .. لكنكَ تلمح ضعفك إزاء انسراب النموذج داخلك رويداً رويداً وترصد عدم مقاومته بل إنك في النهاية ترعاه وتسقيه ليزدهر مبرراً هذا بكونك ابن هذه الفئة وبالتالي وريثٌ شرعيٌّ لكل أمراضها .. وهكذا إلى أن تقول للعائلة ابحثوا لي عن زوجة (تَبَعنا)، ويا حبذا لو كانت من أقربائنا الذين في الأرياف، ومتعلمة لكن لا تعمل، ومقبولة الشكل وتقدس الحياة الزوجية (يعني تقدس الزوج والتراب الذي يمشي عليه، في الحقيقة) .. ويحدث الأمر بعد سلسلة مصادفات عجيبة وتنازلات متوقعة مني في مدى ومساحة التدقيق الواجب في الاختيار حيث أني مستعجل وحيث أنهُ (كله يهون) في سبيل النعيم القادم والسعادة الآتية المتمثلة في التفرغ لكل المشاريع المؤجلة، بدايةً من الكتابة وليس انتهاءً بلضم حبل الود مع الأصدقاء الذين باعدتنا عنهم الأيام .. وأُفَاجَأ بأن الزوجة كانت منذ اللحظة الأولى في صراعٍ محتدم بين بيئتها التي تحبها وتفهم مفاتيحها وبين واقعها الجديد فكان أي شكل للتوائم، هو في الظاهر ومؤقت فقط .. لكنَّ داخلها جَدٌّ حزين .. ثم تصحو شخصيتها العنيدة المتصلبة وتقرر مقاومة حتى حبها لي باعتباره تفريطاً في عَصبيَّتها وقَبليَّتها المتأصلة فيها من يوم أن حَطَّ الجَدُ الكبير في هذا المكان النائي والذي يحيطه الجبل من كل الجهات .. وانعكس صراعها هذا على حياتنا فانقلبتُ من شخص كان يرنو للهدوء التام إلى متصارعٍ دائم وفي أكثر من ساحةٍ ومع أكثر من نَمَط إنساني: هي ووراءها بالطبع أهلها، ثم المراقبين والمتطوعين، وكذلك كل من تنضج كينونته برسم المسارات وتحديد مواعيد الدق على باب الأقدار للآخرين ..

وانتهى الأمر بكوارث من نوعية ضياع الأطفال (والبهدلة وقلة القيمة) والمرض بالطبع ..

المنطقي أن أي منصف ! سيقول إن المشكلة في العينة وليس في، التجربة الطماعة الرائدة، الطموح لكل صياغات الأنانية التي تستتبع الراحة والاطمئنان، الملفوفان في التألق الأدبي الحتمي .. وأنه لا ذنب لرفاق المقهى ولوعيك المتنامي عبر الزمن .. وأن الأمر، في سياقه النفعي المحض، مجرد حظ سئ وعدم توفيق .. لكن عِظَم التأثير النفسي والألم والخسارات المعنوية المدوية، الذين أحاطوا بالتجربة، جعلوني أكره المقاهي وأحدد مواقعها بعدد دقات القلب الزائدة

وأنظر يميناً ويساراً، حيث لا أعلم من أين ستأتي الضربة هذه المرة ...

وأقرأ روايات جيل الستينات وأنا أتحسس مسدسي ..

----

* كاتب من مصر